لقاء مع فاروق في مكتبه

■ عندما قال لى فاروق: أنا أعلم أن الشعب يكرهنى ولكنى لا أخافه لأن الجيش معى.

■ خدم الملك يكتبون تقارير عن الشيوعية وفاروق يطلب من الوزارة الأخذ بها.

■ فاروق: أعلم عن كل ضابط ما لا يعلمه عنه أبوه أو أمه.

■ هل كان فاروق يسهر الليل والنهار من أجل عمله؟

obeikandl.com

obeikandl.com

قبل غـروب الشـمس من يوم حار من شـهر مايوم عـام ١٩٤٩ – وكنت أعمل وكيلا لوزارة الداخلية – كنت جالسًا فى شرفة نادى المعادى الرياضى أحتسى قدحًا من الشاى، وأسرح الطرف فى بساط سندسى ممتد أمامى تحيط به أشجار السنديان الباسـقة، ملقيًـا عن كاهلى عبء يوم مـن العمل أمضيته فى الـوزارة (الداخلية) فى مكتب تتكـدس فيه الملفـات حتى تكاد تخفينى عمن يجلس. حوله أضابـير «الحزمة من الصحف» تنقبض نفسـى لرؤيتها، لأنى كلما دخلت ورأيتها أسائل نفسـى كيف أستطيع البتّ فيها، حتى لو جلسـت إلى المكتب أربعًا وعشرين ساعة كل يوم وتكون النتيجة أن أبت فيها معتمدًا علـى التلخيص الذى يكتبه آخر مديـر إدارة يطلع على الملف. وقد يكون تلخيصًا غير وافٍ، حجبـت فيه بعض الحقائق إما عمدًا وإما إهمالاً. ولكن هناك الملفات المحظوظة التى يتابعها ذو شأن كوزير أو نائب، فهذه تلاقى عناية كبيرة من التلخيص خشية المسئولية.

وأرجو مخلصًا مع تقدم العلم، أن يتناول العقل الالكترونى سير الإدارة الحكومية المعقدة بعناية. وبذلك رأس الوزير أو كيل الوزارة بالعقل الالكترونى الذى لا يشك إنسان فى تحيزه وصدق نواياه.

أعود إلى جلسـتى على شرفة النادى وتأملاتى ورشـفى ببطء الشاى الذى وجدت له طعمًا شـهيًا لم أكن أشـعر به وأنا أتناوله فى مكتبى. وأدركت أن الذى طيب طعمه هو تلك الخلوة الجميلة مع الطبيعة التى تحتضن نفسـى. إن كل شـىء يصبح ذا طعم حين تصفو حواس المرء وتنطلـق النفس من قيود المدينة لتركب جنـاح الطبيعة، وتطير فوق اللامنتهى من أجوائها. وقلت لنفسـى ليت الساسـة الذين يبتون فى مصير الأمم يختلون مع أنفسهم فى أحضان تلك الأم الحنـون، حـين يريدون أن يتخذوا قرارًا خطيرًا، وليـت مجالس الوزارة تجتمع تحت ظلال وارفة من الخمائل بدلا من تلك المائدة المسورة بأربعة جدران، تخيم عليها وعلى عقول الجالسين فيها سحبا كثيفة مقبضة من دخان السجائر والسيجار، وليت الوزراء يتطلعون إلى رؤية الزهور والأشجار بدلا من أن يتطلعوا داخل الحجرة إلى صور كئيبة معلقة على الجدران

للملوك والرؤساء السابقين والحاليين منهم. وبينما أنا فى تأملاتى حضر عامل التليفون وقال: إنى مطلوب. فقلت: له فى ملل وضيق:

– أرجو أن تخبرهم بأنى غير موجود.

فتردد قليلا وقال: سيدى إن الذى يطلبك هو القصر الملكى، وقد أخبرتهم بأنك موجود.

ذهب وتناولت سماعة التليفون، وكان المتكلم السكرتير الخاص للملك فاروق. وبعد التحية أخبرنى أن الملك يريد أن أتوجه فورًا إلى القصر لمقابلته.

قلت: وكيف علمت أنى فى النادى ؟

فضحك وقال: لست أنا الذى علمت، إنه جلالة الملك أرأيت أن جلالة الملك، يعرف كل شىء عن عاداتك؟!

واستطرد ضاحكًا يقول: بل إنه يعرف كل شىء عن عادات كل موظفى الدولة.

فقلت له: أمهلنى نصف ساعة حتى أصل إلى القصر.

ورجعت أتأمل فى ذلك الذى يعرف كل شىء. لكنى تذكرت أن جلالته كان قد حضر إلى النادى منذ أسبوع ورآنى جالسًا على الشرفة نفسها، وسألنى عن سبب وجودى. فأخبرته أنا بين الحين والحين أحضر إلى النادى لألعب مباراة تنس أروِّح بها عن نفسى عناء العمل.

وحين وصلت إلى قصر القبة رأيت سكرتير الملك فى انتظارى، فقادنى فورًا إلى مكتبه. وكان جلالته جالسًا على كرسى مكتبه. ولأول وهلة بدا لى أنه غير مستريح فى جلسته. فالكرسى المصنوع من خشب الماهوجنى الثمين كان يبدو ضيقًا بعض الشىء على جسده الضخم المترهل. وكان يرتدى بدلة فيلد مارشال (مشير) لأننا كنا لانزال فى حالة حرب مع إسرائيل، وكانت سترة البدلة مفككة الأزرار وكذلك أزرار قميصه الكاكى، وربطة العنق متدلية. وكان وجهه يتصبب عرقًا على رغم المراوح الكهربائية وجهاز تبريد الغرفة. حيَّانى بأن قام نصف قومة بشىء من العناء، وأشار إلىَّ بالجلوس. كان يلبس نظارة بيضاء على غير عادته. ولاحظت أنه على الجانب من المكتب الذى أجلس إليه، أباجور ضخم ذو مصباح كهربائى قوى كاد يبهر نظرى. ولم يكن فى جانبه أى مصابيح، وقد أدركت أنه يفعل ذلك ليرى بوضوح وجه الجالس أمامه وتعبيراته وانفعالاته من غير أن يستطيع الجالس أن يتبين ملامحه هو وتعبيراته وانفعالاته. ظل فاروق صامتًا لحظات سألنى بعدها:

– هل تلعب التنس جيدًا ؟

فقلت: يا صاحب الجلالة لا أدعى أنى بطل، ولكن اعتقد أنى أجيد اللعبة.

فضحك ساخرًا، وقال: إنه متأكد أنه لو لاعبنى لهزمنى، وأنه يستطيع أن يكون بطلا لو مارس اللعب بانتظام، ولكن مشاغله تحول دون ذلك (علمًا بأن وزن جلالته كان فوق مائة الكيلو جرام، وأن نظره كان ضعيفًا جدًا، ولاعب التنس لابد أن يكون نحيفًا حتى يتحرك بسرعة، ولابد أن يكون حاد النظر لالتقاط الكرة).. ولكنها أوهام الملوك!

أنا أسهر الليل والوزير يلعب

وأخذ الملك يحدق إلى ورقة أمامه ثم تناول قلمًا أحمر خطط به سطرًا تحت إحدى فقراتها، ومدَّ يده بالورقة وناولنى إياها قائلا بصوته الذى كان يقارب الفحيح:

- خذ هذه الورقة واقرأها.

تناولتها وبدأت القراءة. وفى هذه الأثناء دخل خادم نوبى بملابسه المزركشة يحمل صينية فيها إبريق ضخم من الكريستال مملوء بعصير البرتقال وفنجان فيه القهوة. وضع الإبريق أمام الملك وفنجان القهوة أمامى.

أخذت أقرأ الورقة. وأخذ جلالته يشرب البرتقال ويدخن سيجارًا ضخمًا. كانت الورقة تقريرًا مكتوبًا بالآلة الكاتبة عن النشاط الشيوعى فى مصر، وأنه يزداد ازديادًا شديدًا فى أوساط المتعلمين، سواء فى الجامعة أم المدارس العليا أم الثانوية فى الفصول الأخيرة منها. وذكر التقرير بعض أسماء الجماعات الشيوعية كجماعة (حدتو). وهو اسم لحركة شيوعية ترمز حروفه إلى أنها نحو حركة ديمقراطية تقدميه وطنية. كما ذكر أسماء أساتذة من الجامعة ومدرسين فى المدارس وطلبة وضباط جيش وأعضاء فى نقابات العمال. ولما انتهيت من قراءة الورقة، رأيت الملك ينظر إلىَّ من وراء نظارته بعينيه الزرقاوين الضيقتين نظرة تحد مصحوبة بابتسامة ساخرة وقال:

هل انتهيت ؟

قلت: نعم.

قال: ما رأيك ؟

قلت: يا صاحب الجلالة، إن هذا التقرير هو صورة طبق الأصل من تقرير اطلعت عليه منذ أسبوع عن النشاط الشيوعى فى مصر.

وهنا لاحظت أن شاربه الكثيف ارتجف وأن وجهة اكفهر وقال:

– ما الذى تقوله ؟

قلت: قد قرأت صورة طبق الأصل من هذا التقرير، وأنه واحد من عدة تقارير تتناول النشاط الشيوعى، وأن كل الأسماء والجماعات الشيوعية وضعتها وزارة الداخلية تحت مراقبة دقيقة.

وهنا انتفض جلالته ونهض من كرسيه وهو يصيح:

كلامك غير صحيح. إن هذا التقرير يكشف النقاب عن معلومات لا تعرفها وزارة الداخلية.

وأخذ يضرب مكتبه بقبضة يده صائحًا:

– إنكم مقصِّرون، إنكم لا تدرون شيئًا مما يدور فى هذا البلد. أنا وحدى الذى أعرف ما يدور. أنا أسهر الليل، وأعمل طول النهار، ووزير الداخلية كلما سألت عنه يقولون إنه نائم، وأنت تمضى وقتك فى لعب التنس.

– وهدأ غضبه قليلا حين دخل الخادم يحمل دورقًا آخر من عصير البرتقال وطبقًا كبيرًا مملوءًا باللوز.

قلت:

– لا شك فى أن جلالتك تمضى الليل مع النهار ساهرًا تنظر فى شئون الدولة. (وكل مصرى كان يعلم أنه يسهر الليل إلى الصباح فى نادى السيارات يلعب البوكر والبكارا أو فى ملهى الأوبرج، وأنه ينام حتى الساعة الرابعة بعد الظهر). ولكن اتهام جلالتك لنا بالتقصير شىء خطير، لأن حماة الأمن إذا قصروا أنهار الأمن، وليس معقولا أن نترك جلالتك تعمل كوزير للداخلية ووكيل لها ومدير للأمن العام بدلا من الوزير الذى ينام دائمًا، ووكيل الوزارة الذى يلعب التنس.

فرد بسخرية قائلا:

– وهذا هو ما يحصل مع الأسف.

قلت: لم يبق لك يا سيدى إلاَّ أن تُقيل الوزير والوكيل، وتعين وزيرًا يقظًا ووكيلاً لا يلعب التنس.

فسكت لحظة ثم ضحك وقال:

– ولكنى سأعطيكما فرصة أخرى. وعليك أن تتوجه إلى مكتبك وتصدر الأمر بالقبض على كل الأشخاص الذين وردت أسماؤهم فى التقرير.

قلت: اسمح لى يا سيدى بأن أعلق على الشيوعية فى مصر. إن عملاء الشيوعية بدءوا أول ذى بدء فى نشر دعايتهم بين طبقة الفلاحين والعمال، مستغلين سوء الحالة الاجتماعية. وكانوا فوق الدعاية يقومون بتوزيع بعض الأموال. ولكن مساعاهم فشل لأن أكثر الفلاحين لا يجيدون القراءة والكتابة، وكذلك الكثير من العمال. لقد أخذوا المال ولم يفهموا المبدأ الشيوعى ولم يهضموه. ولما ضاعت مساعى العملاء توجهوا إلى أوساط المتعلمين الذين قرءوا الكثير عن كارل ماركس ولينين وتروتسكى وهضموا مبادئهم وتعاليمهم، وتأثروا بالظلم الفادح الذى تعانيه الطبقة الكادحة والاستغلال البشع الذى يرزحون تحته. وفوق ذلك، فإن المتعلمين يشعرون بأنهم مظلومون. فمرتباتهم لا تكاد تفى بحاجاتهم وحاجات أسرهم، بينما تتلألأ قصور الجهلة ذوى العقول المظلمة بالأنوار والخدم والحشم والجواهر.

الشعب يكرهنى لكن الجيش معى

نظر إلىَّ الملك نظرة عجيبة وقال:

– ما شاء الله. هل أصبحت شيوعيًا ؟.

قلت: لا يا سيدى، لست شيوعيًا. ولكن أرجو أن يعالج الأمر على ضوء الاعتبارات الاجتماعية، وأرجو أن تأمر جلالتكم رجال الحكومة بالعمل على رفع الظلم الاجتماعى، لأنه بهذا وبهذا وحده، نحارب الشيوعية. إن بذور الشيوعية لا ينبت زرعها إلا فى الأرض الظالمة.

قال الملك:

– إن شعبى شعب سعيد والخير كثير ومتوافر، والشيوعية خطر على عرشى. إن همّ الشيوعية إزالة العروش. إن أكثر العروش أطاحت بها الشيوعية.

قلت: يا صاحب الجلالة، إن أصحاب العروش هم الذين أطاحوا بأنفسهم، لأنهم ابتعدوا عن الشعب وتجاهلوا مطالبه وظنوا أن كل شىء على ما يرام ماداموا هم بخير.

وهنا صاح الملك:

– أنا لا يهمنى الشعب، إننى أعلم أنه يكرهنى. إنهم يعيبون تصرفاتى وينتقدوننى على كل صغيرة وكبيرة. إنى لا أخاف الشعب، لأن لى درعًا تحمينى ضده. وسكت.

قلت: هل تسمح يا صاحب الجلالة بأن تذكر ما هى هذه الدرع؟ فرد وهو يكز على أسنانه وببطء: الجيش.

سكت برهة وقد هالنى الأمر، وتمالكت نفسى فترة أحسست فيها بضيق شديد وببعض العرق يتصبّب، وأخيرًا قلت:

– يا صاحب الجلالة هل أنت واثق من ولاء الجيش؟ وتطلعت إلى وجهه الذى أصبح فى احمراره كأنه قطعة ضخمة من الطماطم. وبدأ جسمه الضخم يرتعد. والحق أنى شعرت بشىء من الخوف قطعته صيحة منه تقول:

– ايه ده ؟ ماذا تقول؟ هل تريد أن تشكك فى ولاء الجيش لى؟

– لا أريد أن أشكك. ولكنى أعلم أن الجيوش قامت بعدة انقلابات ضد حكامها.

فصاح: ها ها ها. هؤلاء حكام مغفلون لم يعرفوا كيف يختارون الضباط المخلصين. إن أى ضابط يلتحق بالجيش، أعرف عنه ما لا يعرفه أبوه وأمه عنه.

وابتسم ساخرًا وقال: أنت فاكر إنى ألعب ؟.

قلت: معاذ الله يا سيدى.

حياتى فى مصر لن تكون طويلة

ومدَّ الملك يده إلى علبة كبيرة من خشب وردى اللون، وأخرج سيجارًا ضخمًا وأشعله، وأخذ ينفث دخانه ويحلق بعينه إلى السحب الكثيفة الذى يثيرها سيجاره. ثم أخذ يترنم بأغنية فرنسية. وتوقف بعد لحظة ونظر إلىَّ قائلا:

– هل تعرف الفرنسية ؟

قلت: قليلا. لأنى تعلمت الإنجليزية.

قال: هه. هل تعرف أنى أتقن ست لغات ؟

فقلت: لا غرابة فى ذلك.

قال: إن الأغنية التى كنت أترنم بها جميلة المعانى، وموسيقاها عذبة، وإنى أترنم بها حين يضيق صدرى.

سكت ولم أرد على الغمزة التى قصدنى بها، من أنى تسببت فى ضيق صدره.

قال: على كل حال هذه الأغنية خير من أغانيكم المصرية الرتيبة المملَّة. إن مغنيكم يظل طول الليل يصيح يا ليل يا عين يا عين يا ليل، وأنتم تصيحون قائلين: آه.

وأخذ جلالته يضحك.

قلت: يا صاحب الجلالة. أرجو الله أن يجعل حياتك دائمًا سعيدة وطويلة، ويسرنى أن أرى جلالتك تروِّح عن نفسك بهذه الطريقة.

قال: إن تمنياتك لى بحياة طويلة وسعيدة، أشكرك عليها. ولكن حياتى فى مصر لن تكون طويلة. لأنها لن تكون سعيدة. أما بعيدًا عن مصر فإنى أستطيع أن أحيا حياة طويلة سعيدة.

– وأين يا صاحب الجلالة ؟

– فى أى بلد آخر من العالم. أنا أعرف أنى لا أستطيع أن أعيش كما أبغى فى بلدكم هذا. إن الذى يريد أن يعيش فى مصر ويتجنب الانتقاد والسخرية، عليه أن يلبس عمامة ويمضى حياتـه فـى الكرب والغم والقرف والصخرية. وأنا لا أحب الغـم والقرف. يعنى فيها إيه لو ذهبت إلى نادى السـيارات أو الأوبرج لأروِّح عن نفسـى عناء العمل. أليست هذه ديمقراطية أجلس فيها مع الشعب، كأنى واحد منهم. لكنكم تنتقدوننى على ذلك.

قلت: إنهم لم يتعودوا أن يذهب ملكهم إلى ملهى. ولم يسـمعوا عن الملوك الآخرين أنهم يفعلون ذلك.

قال: هذه تقاليد بالية. نحن فى عصر حديث.

فسـكت إذ لا داعى للمجادلة. لقد فسـح صدره لملاحظات لو قيلت لأحد ديكتاتورى القرن العشرين لخرجت إلى جهة لا يعلم أحد من أهلى أين تقع. وإن كنت سعيد الحظ بهذه الجهة من دون شك ستكون سجن القناطر أو طرة أو القلعة.

وقام الملك من مقعده وتوجه إلى وسط الغرفة وقال:

– على كل حال سأريحهم وأستريح منهم. كلها كام سنة وبعدها.. ثم سكت.

قلت: هل أستطيع يا سيدى أن أعرف ما تنوى؟

قال: فسرها كما تريد.

ثم صافحنى معلنًا انتهاء المقابلة.. فخرجت من مكتبه وكلماته تطن فى رأسـى، وغرابة تصرفاته تحيرنى إلى أقصى حدود الحيرة.

إنـه يريد أن يحارب الشـيوعيين، وأن يقبض عليهم لأنهم يهددون عرشـه. إنه يحصن نفسـه ضد الشـعب معتمدًا على الجيش. ولكنه فى الوقت نفسـه يفكر فى الخروج من مصر والتخلـى عـن العرش. وفيما كنت أسـير فى ردهات القصر التى لا يسـمع فيها وقع الخطى لكثافة السجاد، وغارقًا فى أفكارى، استوقفنى صوت يقول فى لغة عربية ركيكة:

– ازيك يا سعادة البيك.

نظرت إليه وعرفته. إنه تسـتا الإيطالى، مانيكـور الملك وبيديكيره (المختص بقص أظافر اليدين والقدمين).

قلت: سلمك الله. وكيف حالك ؟

قال بلكنته الغريبة: هل أنت مسرور منى؟

قلت: يا تستا لم أجربك بعد فى قص أظافرى.

فضحك وقال: لا أقصد ذلك. هل أنت مسرور من التقرير الذى أطلعك عليه جلالة الملك عن الشيوعية؟

قلت: وما شأنك أنت بالتقرير؟

فابتسم فى استحياء وقال:

- أنا الذى كتبته.

ومضى يعلك رطانته ويمط فى فمه ويقول:

- يا سعادة البيك، لا تظن أن تستا بسيط ولا يعرف إلا قص الأظافر.

ووضع إصبعه على رأسه وقال: إن مخ تستا كبير.

قلت: يا تستا لا شىء عجيب فى هذا الزمان. ولا شك أن عقلك كبير، لأنك استطعت إقناع الملك بأنك تفهم فى الشيوعية.

وودعت ذلك الرجل الذى يقلم أظافر الملك ويريد تقليم أظافر الشيوعية.

ولما خرجت من القصر توجهت فورًا إلى مكتبى فى وزارة الداخلية وطلبت ملفات النشاط الشيوعى، ورحت أراجعها. ولم يطل عجبى، إذ وجدت أن أحد التقارير المودعة هو صورة طبق الأصل عن تقرير تستا الذى قدمه إلى الملك. وحققت فى الأمر. وعلمت أن تستا على اتصال ببعض موظفى الأمن العام. وأنه يأخذ منهم بعض التقارير، علمًا منهم بأنه ذو حظوة عند الملك، وأملا منهم فى أن يقربهم منه.

وفى اليوم التالى قابلت وزير الداخلية، وكان رئيسًا للوزراء، وسردت عليه ما حدث. ولما انتهيت من حديثى ضحك قائلا:

- هون عليك. إنى أتلقى كل يوم تعليمات من الملك عن مشاريع تسربت إليه من أضابير الوزارات قبل عرضها على مجلس الوزراء بواسطة خدم الملك الخصوصيين أو ما يسمونهم الشماشرجية (الذين يلبِّسون الملك ثيابه)، ويباهينى الملك بأنها نتيجة دراساته واطلاعاته. وهو يقول لى دائمًا بأنه لولا أخذه دائمًا بزمام المبادرة لتعطلت الدولة.

❑❑❑

١ – الملك فاروق وفى صحبته الجنرال رالف راويس قائد القوات الأمريكية فى الشرق الأوسط.

٢ – الملك فاروق وهو يدخن الشيشة عام ١٩٤٠.

٣ – الحفلة الساهرة فى قصر عابدين بتاريخ ٩ مايو عام ١٩٥١ التى أقامها فاروق للهيئات السياسية ، ارتدى جميع نياشينه وقلاداته وعوج الطربوش ..

٤ – الملك فاروق وناريمان أثناء حضورهما إحدى الحفلات بإيطاليا .

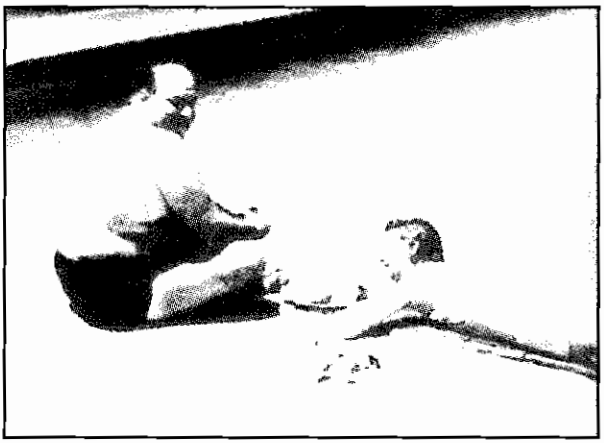

٥ – نساء فاروق «ضجيج بلا طحين» .

٦ – فاروق يهنئ الفائز الأول فى بطولة الشيش .

٧ – مرتضى المراغى .